التاريخية والتجربة الصليبية في فلسطين ، اتضح لزعماء الحركة الصهيونية منذ وقت مبكر ان الزراعة والارض وعدم تمسك اليهود بها تاريخيا كان أحد اسباب ضعفهم وسهولة تشتتهم ، كما بينت لهم التجربة الصليبية انه رغم نجاح الصليبيين في احتلال فلسطين او معظمها عسكريا لمدة مئتي عام تقريبا انتهى بالفشل لنفس السبب وهو عدم الاستعمار الزراعي.لذلك نجد الفلسفة الصهيونية تقدس العمل الزراعي اليدوي وتغرس حبه في نفوس الاطفال والشبيبة اليهودية . وعلى هذا الاساس نجحت التجربة الصهيونية الاستيطانية على أرض فلسطين لانها « عودت » اليهود على اعمال الزراعة والاعمال الشاقة بصورة عامة وكونت مؤسساتها على هذا الاساس ، بينما فشلت تجربة بيروبيجان لان الظروف التي نفذت فيها لم تتجه في المنحى ذاته .

وهذا يجرنا الى السبب الثاني الذي يورده المؤلف وهو التخطيط السيء للمشروع . ويعزو الاستاذ ناجي علوش في كتابه « الماركسية والمسألة اليهودية » اخفاق المشروع في تحقيق اهدافه الى موقف الحزب والدولة في الاتحاد السوفياتي . « فلو أراد ستالين حشد اليهود في بيروبيجان لاستطاع أن يقوم بذلك ، وهو الذي اجرى تنقلات واسعة داخل الاتحاد السوفياتي » . ولكن هل المسألة تتعلق بارادة ستالين ورغبته ؟ لقد جاء في وثائق مؤتمر يالطا ان ستالين أبلغ روزفلت ان المسألة اليهودية صعبة جدا وان الاتحاد السوفياتي حاول انشاء وطن قومي يهودي في بيروبيجان ، ولكن اليهود، وهم تجار بطبيعتهم ، لم يبقوا هناك اكثر من سنتين او ثلاث سنوات ثم تفرقوا منها . برأيي ان هذا الرأي جد منطقي . اذ أنه برغم ان المنطقة بعيدة وتخطيط المشروع كان سيئا الى حد كبير ، الا ان الحكومة السوفياتية أعطت اليهود تسهيلات اكثر مما أعطت لافراد أية قومية اخرى . وهذه التسهيلات تراوحت من تمليك الارض الى مدهم بالمساعدات المالية . قد يكون من الممكن ان ستالين كان سرا ضد المشروع ، ولكن في نهاية الثلاثينات وخلال سني الحرب ، لم تعد لليهود الذين لهم اعمال مصلحة في الانتقال . لماذا يغادر شخص كييف او فينيتسا مكانا يعيش فيه منذ زمن طويل ويترك عمله الدائم ومعارفه ؟ ان اللوم لا يعود بالدرجة الاولى على موقف الدولة والحزب في الاتحاد السوفياتي لان فشل المشروع يعود للاسباب التي ذكرت آنفا ، وان كان الموقف الرسمي، وخصوصا موقف ستالين ، غير مشجع ، غير أنه كان في الدرجة الثانية ولم يكن اساسيا . وقد تكون هناك أسباب اخرى . ولكن لا يمكن القاء اللوم على السلطة السوفياتية لان عشرات الالوف وليس مئات الالوف ذهبوا الى بيروبيجان .

وهناك رأي ينسب فشل تجربة بيروبيجان لاسباب تتعلق بعدم وجود أساس تاريخي وروحي في بيروبيجان يجذب اليهود اليه . وهو ادعاء الحركة الصهيونية التي حاربت المشروع بضراوة . ولكن ما يدحض هذا الادعاء أن حوالي مليون يهودي روسي هاجروا الى الولايات المتحدة بين سنتي ١٨٨١ و١٩١٤ مع العلم انه ليس في اميركا أساس تاريخي وروحي يجتذب اليه اليهود . فالهجرة الى اميركا كانت بدوافع اقتصادية . اذ أن اليهود ابان الحكم القيصري كانوا في حالة اضطهاد شديدة وكانوا يعانون اشد الوان الفقر والتمييز ، لذلك كانت هجرتهم الى اميركا .

من هنا ، ارى أن ما يذهب اليه الكاتب في تحليله لفشل المشروع صحيح . فالمسؤولية في فشل مشروع بيروبيجان تقع على اليهود انفسهم بالدرجة الاولى . ولم يتجاوبوا معه بدرجة تكفي لنجاحه . فقد كانت اعداد المهاجرين منهم الى بيروبيجان قليلة بالنسبة الى مجموع عددهم في الاتحاد السوفياتي من جهة والى حالتهم وظروف معيشتهم من جهة اخرى خاصة في الفترتين اللتين اعقبتا ثورة اكتوبر والحرب العالمية الثانية .

أما لماذا لجأت الحكومة السوفياتية الى انشاء وطن قومي لليهود مع أن لينين كان يرى أن اليهود لا يشكلون « امة » فتلك مسألة تستوجب التوقف عندها بعض الشيء . لقد نادى لينين « بحق الامم في تقرير مصيرها » ، وبالرغم من ان تصريحات لينين وستالين قبل الثورة لم تعتبر اليهود « امة » ، فان السياسة التي سارت عليها الحكومة السوفياتية اتاحت لليهود فرصة النمو قوميا ضمن الدولة الاشتراكية . لذلك استصدرت عام ١٩٢٨ قانونا باعطاء بيروبيجان صفة « دائرة قومية يهودية » ثم رفعتها الى صفة درجة « مقاطعة يهودية ذات حكم ذاتي » وذلك من ضمن الشعار الذي نادى به لينين وهو « حق الامم في تقرير مصيرها » .